الريف المصرى فى العصر الوسيط
من (٦٤١م//٢١ه) إلى (١٥١٧م// ٩٢٢ هـ)
قراءة جغرافية تحليلية

د. يحيى كدوانى احمد
مدرس الجغرافيا التاريخية
كلية الآداب- جامعة المنيا

مقدمة :

أثارت القرى المنتشرة منذ القدم فى الوادى والدلتا وهذه الكثافة السكانية العالية – وما بينها من تعاون وعمل- دهشة بعض المؤرخين والرحالة ومنهم هيرودوت ، ورغم هذا الانتشار الجغرافى للقرى إلا أن التشابه صار سمة لها ، وبصفة خاصة نمط حياة سكانها ، وحين وصل العرب إلى مصر مع الفتح الاسلامى (٢١ه/٦٤١م) ، وجدوا القرى متمسكة بمواضعها البارزة سواء التى تقع فوق تل أو جسر أو ربوة ، تعلوا بأقدامها عن مستوى الغرق ، وتجمع النقيضين معا القرب من مصدر المياه وهو نهر النيل والبعد عن خطر الفيضان . كما أنها تبدو أقرب إلى الشكل الدائرى ، تضم أكبر عدد من المنازل فى أقل مساحة ، لعدم الإفراط فى مساحة القرية على حساب الأرض الزراعية من ناحية ، وسهولة الدفاع عن نفسها من ناحية أخرى ، فهى ذات شوارع ضيقة ملتوية (Zigzag) متوافقة مع خصائص السطح المتدرجة من مكان إلى آخر ومتفقة مع خاصية اجتماعية وأمنية تفتقت ازهانهم (سكان الريف)عند التخطيط لإنشاء المحلة العمرانية الريفية وهو الأئتناس ببعضهم وإحساسهم بالأمن والأمان لقرب منازلهم ، ومن الحقائق الثابتة أيضا أن خطة القرية العامة لم تختلف فى العصور الوسطى عما كانت عليه من قبل (أيام الفراعنة).

أما فيما يخص السكان فقد توزعوا طبقا لطبيعة الأنشطة الاقتصادية التى يعمل بها كل منهم وتأتى الزراعة فى المرتبة الأولى يليها حرف كالصيد والتجارة والحدادة والبناء والرعى ، وقد ارتبط بالزراعة فى هذه المرحلة التاريخية المهمة تحسن أحوال القرى الاقتصادية والاجتماعية وخاصة مع تنوع وسائل الرى التى أسهمت فى رفع المياه

واستصلاح الأراضي واستزراعها وتنظيم الدورة الزراعية كالساقية والطنبور وإدخال أنواع جديدة من المحاصيل .

أما بشأن التوزيع الجغرافى للقرى ومعدل تركزها فتبين طبقا لما جاء فى كتابات الرحالة الذين زاروا مصر أن العمران الريفى اقترن بالمعمور فى الوادى والدلتا، نتيجة التجانس الواضح بين البيئة الجغرافية فى هذا الإقليم من جهة ، وحتى تتجنب أخطار الفيضان وتحقق الاستفادة الكاملة من الأراضى الزراعية من جهة أخرى . ولكى تتوافق مع نظام الرى الحوضى تميزت هذه القرى بالحجم الكبير، ولكل منها توابع من الكفور والمنيات (منية) والمناشى (منشية) والضياع والنزلات (نزلة) . كما أنها ظهرت كضرورة اقتضتها طول رحلة العمل اليومية خاصة فى زمن الحصاد، وظلت القرى الأم هى المستقر العمرانى للمزارعين نظرا لما تتميز به من موضع يعلو مستوى الفيضان [1].وإتباع وسائل الحماية الممكنة كالسور مثلا.

موضوع الدراسة:

يتناول البحث دراسة الريف المصرى فى العصور الوسطى قراءة جغرافية تحليلية من خلال ما ورد فى كتب الرحالة وجغرافى العصور الوسطى ، الذين زاروا مصر ولفت أنظارهم هذا الانتشار المتواصل للعمران الريفى فى الصعيد والدلتا ، وإدراكهم قيمة الريف كحياة أو كبيئة جغرافية لها خصائص متميزة ، وأنها أى القرى هى التى تمد المدينة بما تحتاج إليه وخاصة موارد الغذاء من محاصيل كالقمح والشعير والفواكه والخضروات والسكر والعسل وغيرهم ، بل أحيانا تتطور هذه القرى لتصبح مدناً نتيجة الزيادة السكانية واتساع الرقعة الزراعية والعمرانية وتنوع الخدمات بها ، وتطور أهمية موقعها الجغرافى .

يضاف إلى ما سبق الارتباط الوثيق بين البيئة الزراعية وتركز القرى، وعلاقة بنهر النيل وفروعه ، كما يعكس ذلك شكل التوزيع الجغرافى لمراكز العمران الريفى فى مصر ، والذى يمكن أن يوصف كشجرة الجذع بقراه القليلة هو الصعيد ، والفروع بقراها الكثيرة هى الدلتا بفروعها وخلجانها المتعددة ، وهذه الصورة الجغرافية تطابقت مع ما جاء

فى كتابات الرحالة والجغرافيين العرب فى العصر الوسيط رغم اهتمامهم الواضح بدراسة المدن .

وتهتم هذه الدراسة أيضا بدراسة نمط التوزيع المكانى وتركيب المسكن والتركيب المحصولى الذى اشتهرت به القرى المصرية سواء التى تقع فى الصعيد أو الدلتا وميزها عن غيرها. بالإضافة إلى أنواع القرى وأحجامها ومكوناتها كالمساجد والأسواق والشوارع وما يخصها من آثار ويعكس تاريخها ومرحل تطورها. ويمكن إيجاز مضمون البحث فى مجموعة من العناصر قامت الدراسة بتحليلها وهى كالتالى:-

أولا - العوامل الجغرافية التى ساهمت فى نشأة وتطور العمران الريفى

ثانيا- التوزيع الجغرافى للقرى

ثالثا- أنواع القرى ومكوناتها

رابعا – تركيب المسكن الريفى

خامسا- التدرج الحجمى للقرى

أسباب اختيار الموضوع:

١- أهمية دراسة جغرافية الريف ومعرفة مقومات العمران الريفى ومكوناته فى العصور الوسطى.

٢- نمو القرى المصرية وازدهارها فى العصور الوسطى نتيجة الزيادة السكانية وتطور وسائل الرى وتنوع الانتاج الزراعى.

٣- العلاقة بين المدينة واقليمها الريفى والتبادل التجارى بينها وموقف الحكام العرب من القرى .

أهداف الدراسة:

١- إذا كانت دراسة المدن هى الأهم بالنسبة للباحثين فان دراسة المدينة ناقصة ما لم تدرس علاقة المدينة باقليمها وريفها المحيط بها للتفاعل الوثيق بينهما والذى يتكون من مجموعة من الافعال وردود الافعال المتبادلة بينهما مما يخلق مركبا اقليميا متميزاً.

٢- لا يمكن فهم العمران الريفى الحالى إلا بدراسة الريف فى الماضى.

٣- إعادة بناء جغرافية الريف أو بمعنى آخر دراسة الحاضر التاريخى الذى كان موجوداً منذ قرون عدة وتحقيق الاستفادة من ذلك فى الدراسة الجغرافية الحديثة.

٤- رسم خريطة للمحاور الرئيسية لانتشار الريف المصرى فى العصر الوسيط

منهج الدراسة:

اعتمدت هذه الدراسة على استقصاء المادة العلمية التى وجدت متناثرة فى العديد من المصادر الجغرافية التى تنتمى إلى العصور الوسطى، ومنها كتب الرحالة التى كتبت عن مصر وبصفة خاصة ما ورد عن الريف المصرى وتوزيعه وسكانه وأنشطتهم الاقتصادية وشكل المسكن والاسواق والجوامع، والقاء الضوء على دور الريف فى استمرار المدن وتوفير احتياجاتها.

أما المنهج المتبع لتحقيق الهدف من هذه الدراسة فهو المنهج الوصفى لوصف الصورة الجغرافية للريف ثم المنهج الموضوعى حيث التركيز على دراسة أشكال القرى وتركيبها وأنشطة سكانها وعلاقتها بنهر النيل والطبيعة الجغرافية للوادى والدلتا ، والصحارى وما بها من منخفضات ورحلة العمل اليومية وأهم أسواقها ومنتجاتها ، يضاف اليهما المنهج التاريخى من خلال تتبع تطور القرى وطرق الرى وتاريخها مع الاستعانة بالأسلوب الوصفى .

الدراسات السابقة:

لم تحظ القرى بالاهتمام الواضح فى الدراسة كما حظيت المدن ، ومن ثم ندرة الدرسات التى اهتمت بدراسة الريف المصرى فى العصر الوسيط . ومن الدراسات التى أشارت للريف بين صفحاتها :

١-عبد العال الشامى، مدن مصر وقراها فى القرن الثامن، مجلة كلية الآداب، جامعة المنيا ، المجلد التاسع عدد ١ ، ١٩١٩.
٢-عمر الفاروق سيد رجب ، فصول من جغرافية مصر التاريخية فى العصور الوسطى ، القاهرة، ١٩٩٣.
٣- محمد علم الدين الشقنقيرى، صورة مصر من خلال رحلة ابن جبير وابن بطوطه، فرحة للنشر ، القاهرة، ٢٠٠٥م.
٤- ظريف مراد ، التراث الجغرافى العربى ، ابن حوقل ومنهجه الجغرافى ، مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ، ٢٠٠٤م.
٥-أمينة احمد أمام، رؤية الرحالة المسلمين للاحوال المالية والاقتصادية لمصر فى العصر الفاطمى ، الهيئة العامة للكتاب، ١٩٩٤م.
٦-عمرو عبد العزيز- العمران المصرى بين الرحلة والأسطورة – الهيئة المصرية العامة للكتاب – ٢٠١١م
٧- إبراهيم دسوقى محمود ، العمران فى الصعيد العلى "٤٥ه//٩٢٢م" : دراسة فى الجغرافيا التاريخية ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، كلية الآداب ، جامعة المنيا ، ١٩٩٤م

مصادر الدراسة :

اعتمدت هذه الدراسة على معلومات جغرافية مهمة استقتها مباشرة من المصادر الأصلية التى تنتمى إلى هذه الفترة التاريخية المهمة إلى جانب بعض المراجع العربية والأجنبية المهمة ومن أهم المصادر المنشورة ما يلى :

١- شهاب الدين النويرى ، نهاية الإرب فى فنون الأدب ، تقديم مرزوق إبراهيم ، الهيئة العامة للكتاب، ٢٠٠١م.
٢- ابن زولاق ، فضائل مصر وأخبارها وخواصها، تحقيق على محمد عمر، الهيئة العامة للكتاب ، ١٩٩٩م.

٣- ابن ظهيرة، الفضائل الباهرة فى محاسن مصر والقاهرة، تحقيق ، مصطفى السقا ، الهيئة العامة للكتاب، ٢٠١٦م.
٤- ابن حوقل : (أبى القاسم محمد) صورة الأرض ، دار الحياة ، لبنان ١٩٧٩.
٥- ابن عبد الحكم (أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله) فتوح مصر وأخبارها- القاهرة، ١٩١٤.
٦- الاردیسى — أبى عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله الشريف، نزهة المشتاق فى احتراف الآفاق، مكتبة الثقافية الدينية ، القاهرة، ١٩٩٩.
٧- ابن بطوطة ، رحلة ابن بطوطة ، دار بيروت للطباعة، بيروت، ١٩٦٠.
٨- البغدادى (صفى الدين عبد الحق)، مراصد الاطلاع على أسماء والأمكنة والبقاع ، تحقيق على البيجاوى ، ط١ ، القاهرة، ١٩٥٥.
٩- ابن جبير (أبو الحسن بن محمد احمد الكنانى) ، رحلة ابن جبير ، تحقيق حسين نصار، مكتبة مصر ، القاهرة ، ١٩٩٢.
١٠-أبى بكر الزهرى، كتاب الجغرافية ، تحقيق محمد حجاج صادق ، الثقافة الدينية، القاهرة، ٢٠٠٠م.
١١-زكريا القزوينى، آثار البلاد وأخبار العباد ، القاهرة ، ٢٠٠٣م.
١٢-القلقشندى (شهاب الدين أبو العباس) ، صبح الأعشى فى صناعة الانشا ، القاهرة، ١٩١٣م.
١٣-الأسعد ابن مماتى ، قوانين الدواوين ، تحقيق عزيز سوريال ، القاهرة، ١٩٤٣.
١٤-ناصر خسرو علوى ، سفر نامه (زاد المسافر) ، ترجمة يحيى الخشاب ، الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة، ١٩٩٣م.
١٥-الهروى أبو الحسن السائح ، الإشارات إلى معرفة الزيارات، تحقيق على عمر ، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة ، ٢٠٠٢م.
١٦-ياقوت الحموى، معجم البلدان ، بيروت ، ١٩٥٧.

١٧-علماء الحملة الفرنسية ، موسوعة وصف مصر، ترجمة زهير الشايب ، الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة ، ٢٠٠٢م
١٨-المقريزى ، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ،القاهرة ، ١٩٥٤م
١٩ - الاصطخرى : المسالك والممالك ، ط ليدن ١٥٧٠م.
٢٠-ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة ، تحقيق طلال حرب ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ١٨٧

أولا- العوامل الجغرافية التى ساهمت فى نشأة القرى المصرية

ارتبط مفهوم الريف فى مصر بما اقترب من المياه من الأرض وأكثرها خصوبة حيث الزراعة هى الأساس الاقتصادي والنشاط الرئيسى للسكان ، وقد وضح القلقشندى " أن الريف على الأغلب أسفل الأرض (الدلتا)" [٢]. وفى هذا إشارة واضحة للكثافة المرتفعة للعمران الريفى فى الدلتا نتيجة لاتساع مساحة الأراضى الزراعية الخصبة ، وانتشار أفرع النيل والخلجان والترع وامتداد شبكة طرق تصل إلى البحر المتوسط لخدمة النشاط التجارى وقوافل الحجاج .

وتمشيا مع المعطيات التاريخية فان التجمع البشرى بدأ فى العادة بالريف حيث الأرض الخصبة ونشأة حرفة الزراعة وتوفر مياه الرى ، والريف أيضا هو تلك المحلات العمرانية ذات الخصائص السكانية والاقتصادية والاجتماعية والعمرانية المتألفة ، التى تجعل هذه المحلات ذات شخصية جغرافية متميزة [٣] ، بالإضافة إلى أن الريف هو ما يعرف بتوابع المدن .

وقد أدرك الرحالة العرب فى العصور الوسطى حقيقة أساسية أدت إلى نشأة العمران الريفى وانتشاره وهى أن هناك عوامل جغرافية وتاريخية أسهمت فى ذلك ، ويأتي فى مقدمة هذه العوامل الجغرافية :

١- **نهر النيل** : الذى يكاد يتحكم فى تشكيل كل مظاهر العمران وتوزيع الحياة من حوله وضبط إيقاعها فى كثافة معينة تقل بصورة عامة كلما ابتعدنا عنه شرقا أو غربا ومن أهم شئ أحجام القرى وكثافتها ومعدل تباعدها ، وسمك رواسب التربة الفيضية ووفرة مياه الرى اللازمة لممارسة حرفة الزراعة . ومنظم دورة الحياة اليومية والنشاط التجارى ، وعن طريق فيضانه يتحدد الموسم الزراعى ونوع المحاصيل .

كما يتحكم النهر فى طبيعة الطرق وامتدادها وتكوينها ونوع المواصلات ، ويؤثر ارتفاع منسوب المياه وقت الفيضان فى تحديد مواضع ومواقع القرى على جانبى النيل ، وكذلك اتساع السهل الفيضى يتحكم فى تركزها شرقا وغربا وشملا وجنوبا كما تمتد القرى على امتداد شبكة الترع والخلجان الأولية والثانوية ، ويمكن القول أن النشاط الزراعى اقترن بالمحلة العمرانية ومن ثم انشأ الفلاح المصرى مسكنه بجوار أرضه توفيرا للوقت والجهد وحماية مصدر دخله.

٢- **أشكال السطح** : تأثر العمران الريفى أيضا بأشكال السطح حيث ظهر تأثير ذلك جليا على نمط وإشكال العمران من حيث التركز والانتشار من خلال قدرته على جذب السكان لإقامة المحلات العمرانية وخاصة القرى فالسهول الفيضية والوديان هى أكثر ملائمة للاستقرار ونشأة القرى وهذا ما وجده الرحالة عند حديثهم عن الريف المصرى وامتداده مع السهل الفيضى والدلتا بفروعها وخلجانها . كما تأثرت شبكة الطرق التى تربط شبكة العمران الريفى والحضرى بالتضاريس وارتبط معظمها بالسهل الفيضى شمالا وجنوبا والواحات فى الصحراء الغربية وقلت الكثافة العمرانية بالقرب من الهضبة الغربية والشرقية .

٣-**التربة** : أما بشان التربة وعلاقتها بنشأة العمران الريفى فيمكن القول أن التربة المصرية تربة فيضية خصبة تكونت نتيجة تراكم الطمى الذى حمله النهر إلى مصر من هضبة الحبشة منذ ما يقرب من عشرة آلاف عام ، وللتربة دور مهم فى توزيع مراكز العمران فارتفاع خصوبة التربة يقابله ثقل عمرانى وخاصة الريف لارتباطه بالزراعة كنشاط رئيسى ويقل التركز العمرانى مع قلة الخصوبة وندرتها وحيث تقل قدرتها الإنتاجية وارتفاع تكاليف زراعتها وريها .

كما تعد التربة من أهم العوامل التى تؤثر فى نمط استخدام الأرض وبالتالى تركز السكان وحجم العمران وشكله ونمط توزيعه ، ولا يمكن إغفال اثر التربة فى تحديد مادة البناء خلال العصر الوسيط والذى بنيت منها المنازل فى الريف وتأثيرها فى اندماج القرى وتباعدها ولهذا تبين انتشار العمران الريفى فى المناطق القريبة من النهر وفروعه فى الدلتا لخصوبتها العالية وتركز زراعات بعينها مهمة مثل الكتان فى أسيوط والقمح . أما النوع الآخر فتربته خشنه القوام بالقرب من حافتى الوادى .

٤-**المناخ** : وقد ظهر تأثيره واضحا على النشاط الزراعى بصفة خاصة فى تحديد نوع المحصول ومناطق وأوقات زراعته وحجم الإنتاج . كما أثر على المسكن الريفى فتحتم على الإنسان اختيار المسكن ونوافذه المرتبطة بالرياح السائدة وخاصة فى فصل الصيف والجهة دائما صوب الشمال حيث تهب الرياح التجارية . كما يرتبط بالمناخ مواضع نشأة القرى وخاصة حيث انتشار الأشجار والنخيل لوفرة الظل . وكذلك اثر المناخ على تخطيط القرى وتلاحم المسكن وتجاورها ونشأتها فوق الربوات بشكل دائرى للحد من سرعة الرياح (١) ، وضيق شوارعها لحمايتها من الرياح المحلية (الخماسين) وما تحمله من أتربة والحفاظ على الهواء الرطب .

٥- **النشاط الاقتصادي** : ويأتى فى مقدمة هذه العوامل التى لها تأثير مباشر على نشأة القرى وانتشارها وتطور أحجامها. وخاصة الزراعة فيظهر تأثيرها من خلال إقامة القرى المندمجة المستقرة وتحديد الأنماط الرئيسية للسكن ، وتأثيرها فى اختيار نوع مادة البناء المستخدمة بما يتناسب مع المستوى الاقتصادي للفلاح . وقد ظلت العلاقة التفاعلية قوية ومتصلة وخاصة فى الريف حيث ارتباط العمران بالنشاط الزراعة والأسواق لبيع المنتجات الزراعية الريفية وتحقيق المنفعة المادية من الإنتاج الزراعى وتوفير احتياجاته اليومية .

---

(١) إبراهيم دسوقى محمود ،العمران بالصعيد الأعلى (٤٥٠/٥٩٢٢) : دراسة فى الجغرافيا التاريخية ، رسالة دكتوراه ، كلية الآداب ، جامعة المنيا ، ١٩٩٤م ، ص٢٠٢

٦-**السكان** : فلا يمكن دراستهم بدون الإشارة للعمران والعكس الذى هو نتاج تفاعل الإنسان مع البيئة فالسكن قرين دائما للسكان وتوزيعهم وفق عدة عوامل ترتبط فى المقام الأول بظروف البيئة ومكوناتها وبالبعد التاريخى ، وكلما ذاد حجم السكان ذاد حجم القرى ، ومن ثم اتسع نطاق الزمام الزراعى .

٧- **شبكة الطرق** : تؤثر شبكة الطرق فى نشأة المحلات العمرانية من خلال توفير وسائل نقل المنتجات الزراعية إلى الأسواق الرئيسية والمدن المجاورة ، ومناطق الصناعة مثل صناعة السكر والكتان والزيوت ، ومن أهم الطرق التى أسهمت فى نشأة وانتشار العمران الريف نهر النيل وفروعه والجسور التى أقيمت علية لحماية القرى والأرض الزراعية . وقد أنشئت القرى الكبيرة وانتشرت بجوار المجارى المائية الرئيسية وقلت بالبعد عنها. يضاف الى ذلك البعد التاريخى والدينى لبعض المناطق والتى كانت سببا فى نمو الكتل السكنية الريفية

ثانيا- التوزيع الجغرافي للقرى[٤]:

ارتبط التوزيع الجغرافى للقرى فى مصر بنهر النيل فى الصعيد وفروعه فى الدلتا، وهى حقيقة جغرافية أدركها زائري مصر كما سبق الذكر، ومنهم ابن عبد الحكم الذى قال:" كانت قرى مصر بالصعيد وأسفل الأرض (الدلتا) الفين وثلاث مئة وخمسات وتسعين قرية، بالصعيد تسع مئة وست وخمسون قرية، وبأسفل الأرض ألف وأربع مئة، وتسع وثلاثون قرية" [٥]. أما المقريزى (٧٦٦- ٨٤٥هـ) فقال أنه تم حصر قرى مصر كلها شمالها وجنوبها " فأحصيت فكانت ألفين وسبعين قرية" ، ورأى آخر أنها تقدر بحوالي " عشرة آلاف قرية" [٦].

ويتضح من هذا الحصر لعدد القرى ، تركز العمران الريفى فى الدلتا (١٤٣٩) قرية ، أما الصعيد فيوجد به (٩٥٦) قرية ، ويرجع هذا التباين فى التوزيع الجغرافى إلى الاختلاف بين طبيعة البيئة الجغرافية فى كل منهما ، فنجد اتساع أراضى الدلتا ، أو ما يعرف بالاتساع الافقى وتعدد أفرع النيل [٧] ، وهى ثلاث أفرع رئيسية تتفق مع مجاريها فى فرعى (دمياط ، رشيد) وسط الدلتا فى العصور الوسطى، وقد كانت هذه الشبكة المائية السبب

الرئيسى فى انتشار العمران الريفى ، من خلال إيجاد الأرض الزراعية الخصبة والمياه اللازمة للرى ، وكذلك انتشار التجارة فى هذا الاقليم سواء التجارة بين مراكز العمران فى الدلتا أو التجارة العابرة الى الشمال عبر موانئ البحر المتوسط أو من خلال ميناء القلزم(السويس) على البحر الأحمر والطريق المائى الذى ارتبط بخليج امير المؤمنين ، والطرق التجارية وطرق الحج عبر سيناء أو القلزم ، من شرق الدلتا فهى محاور أساسية أسهمت فى توزيع وانتشار مراكز العمران الريفى والحضرى على حد سواء .

أما الصعيد فقد صار حبيس الهضبتين الشرقية والغربية التى ضبطت الوادى الضيق فى الصعيد وتبادلت الإرساب وتغلب الغرب على الشرق ، وتأثرت المراكز العمرانية الريفية بالذات بذلك ، وارتفاع منسوب مياه الفيضان المندفعة من الجنوب باتجاه الشمال مع هذا الارتباط القوى بين مراكز العمران والسهل الفيضى.

مفهوم القرية:

توصف القرية بأنها مجموعة من المساكن البسيطة لها خصائص محددة وترتبط بطبيعة العمل الزراعى وما يتصل به، وهذا ما توصل إلية الرحالة العرب وجغرافى العصور الوسطى والتى من أهمها ما توصل إليه الاصطخرى (ق ٤ هـ) مميزا بين الريف والصعيد فقال :" ويسمى مائلا من النيل عند الفسطاط الصعيد وما تسفل منه الريف"(٨). واتفق مع هذا الرأى الأدريسى (ق ٦ هـ) بأن الجنوب هو الريف " هو ما كان من النيل جنوباً" ، والميزة المرتبطة بهذه الإقليم الريفى طبيعة السكان وهم كما وصفهم من القبط (٩) .

أما الصورة الجغرافية الدقيقة فجاء بها الادريسى فقال : " ويعرف شمالى النيل بأسفل من الفسطاط بالجوف وجنوبية بالريف ومعظم رساتيق "(١٠). ويسمى ما نصل عن مصر الريف واسفل الأرض، وهو الوجه عرضه من حدود الاسكندرية الى طرف الجرف الشرقى عند أول مغارة القلزم نحو ثمان مراحل .

وعلى الرغم من اختلاف المسميات الواردة فى كتابات الاصطخرى والادريسى وابن حوقل إلا أن الحقيقة الجغرافية التى اتفقوا عليها أن الريف موزع على محور النيل جنوب الفسطاط بما فى ذلك الفرع الرئيسى من النيل باتجاه الفيوم وهو بحر يوسف أو كما

كان يسمى بخليج الفيوم ، وقد بلغ عدد هذه القرى طبقا لما ذكره ابن عبد الحكم ٩٥٦ قرية.

أما بالنسبة لأسفل الأرض (إقليم الدلتا) ، فتبين من الدراسة وما جاء بالمصادر أن تعدد المحاور النيلية فيها والتى يمكن حصرها فى (خليج الإسكندرية وخليج دمياط ، وخليج سردوس ، وخليج سخا ، وخليج المنتهى) والتى كانت متصلة الجريان لا تنقطع ، وكل واحد فيها يتفجر الى عدة خلجان صغيرة " [١١] بالإضافة إلى خليج أمير المؤمنين الذى حفره (عمرو بن العاص) الذى يدخل إليه النيل من غربى حصن أبى حديد ، وكان الحجاج يركبون البحر من ساحل تنيس (على البحر المتوسط) ويسيرون فيه ، ثم ينتقلون بالقلزم إلى المراكب الكبيرة" [١٢] . كل هذه المحاور المائية أسهمت فى وفرة الأرض الزراعية وانتشار القرى شرقاً وغرباً .. ومن أقصى الجنوب حتى سواحل البحر المتوسط شمالا .

وقد جاءت كتب الرحلات بمعلومات جغرافية دقيقة ناتجة عن المشاهدة الشخصية والدراسة الميدانية لبعض الرحالة أمثال(ابن بطوطة ، وابن جبير، وناصر خسرو) ، من أهمها التوصل إلى العلاقة بين العمران الريفى المزدهر والأرض الزراعية الممتدة شمالاً وجنوباً ، وأن القرى متوالية وراء بعضها. وأنها مرتبطة بعلاقة وثيقة متبادلة بالمدينة ، فقد كانت القرى وما تزال تمد صناعات المدن بالكثير مما يلزمها من المواد الأولية ، والمحاصيل الغذائية كالقمح , كما كانت المدن تسد بعض مطالب أهل الريف من الانتاج الصناعى وبعض أنواع الكماليات ، وكانت المنتجات القروية تنقل الى المدن التجارية والعاصمة ، حيث تباع فى الأسواق[١٣].

أظهرت أيضا الدراسات الجغرافية لمصر قرب القرى المصرية لحقولها بحكم رحلة العمل اليومية والتى كان لها تأثيرها الايجابي على زيادة الإنتاج الزراعى والتوسع الأفقي للأراضي الزراعية ، كما أدى الاستقرار الطويل وتوالى الأجيال فى القرية الزراعية الى اتساعها وكبر حجم مبانيها والاهتمام بصيانتها وتجديدها ، وتمشيا مع نفس السياق الجغرافى فقد ظهرت المحلات البدوية الريفية مرتبطة بالهوامش ، تفضل القرب من الطرق

بحكم تمسك نسبة منها برعى أغنامها على طول المصارف والترع والرجوع اليها يوميا أو بعد فترة من الزمن.

كما أشار الرحالة أيضا إلى أن القرى اتخذت شكلا خطيا موازيا لمجرى النهر وفروعه فى شكل منتظم ومتناسق ومتصل على طول الطرق الرئيسية التى كان من أهمها مجرى نهر النيل وهنا يجب ذكر آراء ابن جبير الذى قال : " .. فى بسيط من الأرض أصبح متصل من الإسكندرية إلى مصر والبسيط كله مجرى يعمله النيل بفيضه والقرى فيها يمينا وشمالا لا تحصى .. والعمارة متصلة والقرى منتظمة فى طريقنا " (١٤).

وقد ربط هؤلاء الرحالة بين تركز الريف وانتشار التربة الطينية الخصبة وهذا ما أيده ابن حوقل ، فى قوله " أن التربة الطينية أو السوداء تنتشر فى معظم أجزاء الوادى والدلتا (١٥) وأيضا ذكر " أن جميع ما على شاطئ النيل من بهليب (فزارة) الى رشيد ضياع " (١٦)، وفى حديثه هذا إشارة واضحة الى أن أرض الوادى والدلتا وهى منطقة العمران الزراعى (الريف) فى مصر تتكون من التربة الطينية الخصبة ، أهم عامل جغرافى يؤثر فى الزراعة مع المياه ، واهم خاصية من الخصائص الجغرافية للريف . ومما يبرهن أيضا على أن الريف فى مصر اقترن بمحور النيل ودلتاه ما ذكره ابن حوقل النصيبى فقال " تمتد ربوعهم (أهل الريف) بماء النيل من احد أسوان إلى حد الإسكندرية والباطن ، ويقيم الماء فى أرضهم بالريف والجوف منذ امتداد الحر الى الخريف " (١٧).

وقد اهتم بعض الرحالة ومنهم ابن بطوطة بوصف العمران المصرى كأنه يرسم خريطة تفصيلية للتوزيع الجغرافى لمراكز العمران وخاصة العمران الريفى ، وهذا ناتج عن تعدد زيارته الميدانية لشمال مصر وجنوبها مستخدما نهر النيل ، والذى أتاح له رؤية الشريط العمرانى على جانبى النيل وخاصة الجانب الغربى لاتساع السهل الفيضى فقال :" ركبت النيل مصعداً الى مصر ما بين مدن وقرى منتظمة متصل بعضها ببعض" (١٨) ، وهذا الوصف الجغرافى الدقيق أكده أيضا الادريسى فى قوله:" وليس فى أرض مصر مما يجاور ضفتى النيل شئ قفر ، وإنما هو كله معمور بالمدن والقرى المتصلة والبساتين.. " (١٩) .

فالمياه والتربة الخصبة وسهولة الرى والنيل كطريق سببا مباشرا لذلك ، إضافة إلى تركز العمران أيضا على مناهل المياه والخلجان.

يسوقنا ذلك إلى إبراز هيئة الأرض الحضارية والتى تمثلت فى الجهد البشرى المستجيب للإمكانيات الطبيعية المتاحة ، ومن ثم كان جهد الانسان المصرى فى استغلال مياه الفيضان واقامة الجسور لحفظ المياه وشق الترع والخلجان لتوصيل المياه إلى داخل الأحواض الزراعية البعيدة سواء من النيل أو فروعه ، والسدود والقناطر وصيانتها، بما فى ذلك الفروع والخلجان فى الشمال أو الجنوب ، وكل ما له علاقة بالتوسع الزراعى . وقد نتج عن هذه المشروعات إحياء القرى القديمة والإسهام فى نشأة قرى جديدة ، وتشجيع السكان على الزراعة والصناعة والتجارة . يضاف إلى ذلك تمليك الأرض للمزارعين ساهم فى نشأت مجتمعات ريفية زراعية متميزة لفتت انتباه الرحالة [٢٠].

أما الخلجان التى انتشرت لتوزيع مياه الرى وإيصالها للأرض الزراعية البعيدة وخاصة شرق الدلتا وغربها فكان لها دور كبير فى تركز القرى وانتشارها ، وهذا ما أكده الادريسى فى قوله :" على هذه الخلجان قرى عامرة متصلة .. فعلى أحد خلجان الاسكندرية .. على فوهته وأسفل منه مزارع وقرى متصلة فى ضفة المشرق تتصلب بأعلى منوف السفلى "[٢١]. وذكرت بعض الدراسات الجغرافية عدد هذه الخلجان والذى قدر بسبعة خلجان وهم : " خليج الإسكندرية، خليج دمياط ، خليج سردوس ، خليج منف ، وخليج سخا ، وخليج الفيوم ، وخليج المنهى " [٢٢]. ويمكن إضافة خليج (أمير المؤمنين) والذى سبق الإشارة إليه ، وعادة ما كان يخرج من هذه الخلجان بعض الترع التى تروى الأراضى الزراعية البعيدة عن المجارى الرئيسية ولكى تغطى اكبر مساحة من الأراضى الزراعية ، وفقد أوضح ذلك ابن بطوطة فى قوله :" أهل كل بلد لهم خلجان تخرج من النيل ، فإذا أمد ترعها فاضت على المزارع"[٢٣].

أما ناصر خسر فى كتابه (زاد المسافر) فقد قرن ذكره للمدن بالريف فقال " هناك على ضفتى النيل كثير من المدن والقرى يطول وصفها" [٢٤]، وهنا إشارة واضحة تبرز عظم

هذه القرى وكثرتها وعمرانها ونشاطها الزراعى وسكانها وتنظيمها الذى يبرز قيمة العلاقة بين الإنسان والبيئة .. وقيمة نهر النيل الذى يزرع عليه ما لا يزرع على غيره من الأنهار .

ولا تختلف الصورة الجغرافية وتفاصيلها فى شمال مصر عن جنوبها فيما يخص وصف الريف. فالقرى المنتشرة على شبكة الطرق من القاهرة إلى الإسكندرية اهتم بوصفها ناصر خسرو فقال : " إذا كان الماء قد نضب على الريف فسافرت على طريقه والعمارة " عليه متصلة مدنا وقرى إلى الإسكندرية ، ومدنها وقراها أكثر من أن تعد وهى ذات بساتين ونخل وشجر ويفتن حسنها الناظر " (٢٥)،

ويفهم من هذا الوصف أن هناك تركز واضح للعمران الريفى على هذا الخليج مقرونا بوجود المدن . والتى ساهمت فى سد متطلبات القرى وللتنظيم الإدارى والسياسى وللحاجة الاقتصادية باعتبارها قواعد للاقسام الإدارية من كور وأعمال ، ومن ثم فقد كانت المدن المصرية فى العصر الوسيط فى مجملها قرى متحضرة فيما عدا المدن الكبرى والعاصمة والمدن الحربية والموانئ والتى لا ترتبط بمحيط زراعى (٢٦). أما الريف فى المنطقة الواقعة بين الصالحية والقاهرة فقال عنها ناصر خسرو "ومنها – الصالحية- الى قاعدة مصر قرى ظاهرة متصلة وعمارة متظاهرة متأصلة مسيرة خمسة أيام " (٢٧).

وهذا يعنى اتفاق آراء جميع الرحالة فى أن العمران الريفى ارتبط بالطريق النهرى وخلجانه وترعه ، وان القرى كانت متصلة على جانبيه ، فاتخذت الشكل الطولى أو الخطى فى الصعيد والاقرب الى الدائرى فى الدلتا لاعتبارات طبيعية كطبيعة السهل الفيضى وطوله فى الجنوب واتساع الدلتا ولكثرة فروعها وخلجانها وانتشار التربة الفيضية من الفسطاط وحتى رشيد ودمياط والاسكندرية كشجرة ساقها الصعيد وفروعها وأوراقها الدلتا ، تشذ عنها قرى هامشية فى الصعيد صغيرة متباعدة متدهورة من باقى النسيج العام خاصة حين يقع الاهمال فى توصيل مياه الفيضان إلى أراضيها الزراعية ، وهناك قرى زراعية مستقرة فى الواحات المصرية حيث تتوافر مقومات الزراعة ممثلة فى المياه الجوفية وصلاحية التربة ، ثم قرى التعدين فى الصحراء الجنوبية الشرقية لمصر خاصة فى وادى العلاقى حيث معادن

الذهب والزمرد ، وقد شهدت هذه المواقع فى العصر الوسيط نزول قبائل عربيـــة فى أرض المعدن واستغلاله لعدة قرون على أن نضبت المعادن هجرت المحلات السكنية [٢٨].

ومن الحقائق الجغرافية المهمة عن الزراعة ارتباط شهرة الكثير من القرى بأنواع معينة من النباتات أو المحاصيل وقد ارتبط ذلك بمواقعها بالنسبة لمياه الرى ونوع التربـــة ودرجة الحرارة ، وساهم ذلك فى النهاية فى تكوين الشخصية الزراعية لمصر، ومـــن ثم طبيعة النشاط التجارى والصناعى . ومن الأمثلة الدالة على ذلك شهرة بعـــض القـــرى بزراعة نبات معين كالبلسم والأفيون ، فالأول يتركز فى عين شمس فى موقع محاط عليـــه محتفظ به مساحته نحو سبعة أفدنة . وقال الادريسى : "وبعين شمس مما يلى الفسطاط ينبت البلسان " [٢٩]. بينما اكتسبت قرى أسيوط شهرتها من انتشار زراعة الأفيون .

وتعد معلومات الادريسى الجغرافية من أدق ما جاء فى المصادر الأصـــلية عـــن الريف ، فيلاحظ انه اهتم بشكل خاص بدراسة التركيب المحصولى الصـــيفي والشـــتوي وأشجار الفاكهة والنخيل المنتشر فى صعيد مصر بصفة خاصة حيث ينتج التمر ، فزراعـــة الأرز ارتبطت بتوفر مياه الرى ، ونظرا لاحتياجه للمياه فوضح انه يتركـــز فى مـــنخفض الفيوم وشمال الدلتا وهذا الوضع مستمر حتى الآن . وتبين ذلك فيما ذكره الادريسى : " والفيوم مدينة كبيرة ذات بساتين واشجار وفواكه وغلات وأكثر غلاتها الأرز وهو الأكثر فى سائر جنوبها" [٣٠]. حيث توفر مياه الرى والتربة الصالحة لزراعة الأرز، وأكمل وصف الصورة الجغرافية للقرى المصرية فقال " أن لها فى جميع جوانبها بساتين وجنـــات وشـــجر ونخل وقصب سكر وكل ذلك يسقى بماء النيل ومزارعها ممتدة مـــن اســـوان الى حـــد الاسكندرية ويقيم الماء فى أرضهم بالريف منذ ابتداء الحر(الصيف) الى الخريف ثم ينضـــب فنزرع عليه" وفى موضع آخر يقول " جناتها متصلة بحافتى النيل من أوله (أسوان) إلى آخره (البحر المتوسط) من حد أسوان الى رشيد " [٣١].

والخلاصة أن المصادر العربية أجمعت على تركز العمران الريفى على جانبى النيـــل من الجنوب باتجاه الشمال، وانتشار الزراعة باختلاف فصولها ، وان هناك قـــرى تتميـــز بزراعة محاصيل معينة وأنها كالجنة متنوع ثمارها وأشجارها ، تسقى بماء واحد وهو النيل،

مع الفيضان وحتى استقرار المياه فوق أرضها لشهور من أول الصيف إلى الخريف ، ثم نضوبه أو تصريفه إلى أن تصبح الأرض رطبة فتزرع وتخضر زراعاتها. وهذا الوصف الجغرافى يتفق مع القرى المجاورة للنيل والذى يمثل الطريق الرئيسى الذى سلكه الرحالة أثناء سفرهم من صعيد حتى الدلتا وصولا إلى الإسكندرية والفرما.

وتأكيدا لفكرة التوزيع المكانى لأشهر المحاصيل وارتباط ذلك بمواقع جغرافية معينة متمثلة فى قرى بعينها فى الصعيد أو الدلتا ، وهى علاقة جغرافية أكدها الرحالة ، وجعلوها منهجاً فى دراستهم للجغرافيا الإقليمية لمصر فهى أقرب للمنهج الوصفى الذى يبنى الصورة الجغرافية بأسلوب أدبي مستندا على كافة المزايا الجغرافية لكل موضع وموقع متمثلا هنا فى القرى كوحدة جغرافية ، وتأكيدا لذلك فقد أشار الادريسى فى دراسته للريف المصرى عما اشتهر به كل منها نذكر عن قرية الشاميين :" يزرع بها قصب السكر والبصل والقساء وهذه أكبر غلاتها واكثرها وهى بذلك مختصة" (٣٢). وقرية حانوت :" تشتهر بزراعة الكتان وهو غلتها وعليها يعلو أهلها ونبات الكتان يجود فيها " (٣٣).

أما ابن جبير فقد لاحظ " أن ريف دندره يشتهر بالرطب الطبيب وكثرة النخيل ، أما قوص فتنفرد باتساع مساحة الاراضى الزراعية خلاف مدن الصعيد الأخرى"(٣٤). أما ابن سعيد فأيقن أهمية الريف بالنسبة للمدن الرئيسية وسكانها وخاصة (القاهرة) كمصدر للغذاء ، فعرف أن جميع الغلات والنباتات التى توجد فى القاهرة كمثال تأتي من الريف وأهمها " الرمان والموز والتفاح والخوخ ،...والليمون والبطيخ ، والعنب الذى يعصر غالبيته فى الريف والتمر وهو كثير..." (٣٥).

وفى نفس السياق يؤكد القزوينى أن قفط " كثيرة البساتين والمزارع وبها النخيل والأترج والليمون ... وقرى أخميم عامرة بالنخيل والزرع على النيل الشرقى .. وكثرة زراعة الليمون والزنبق بدمياط والبطيخ الدميرى المنسوب لقرية (دميره) الموجودة بطلخا " (٣٦). أما الهروى أبو الحسن فلفت نظره اجتماع كل أنواع الفواكه والخضراوات والنباتات فى آن واحد دليل على تنوع الزراعة وملائمة المناخ والتربة لزراعة محاصيل مختلفة سواء

صيفا أو شتاءاً ، أو محاصيل تصلح فى الجنوب وأخرى فى الشمال ، أو محاصيل فى الأرض المجاورة للنيل وأخرى للبعيدة عنه طبقا لطبيعة وخصوبة ورى كل منها.

وتعليقا على ما ورد من آراء جغرافية بشأن انتشار الأراضي الزراعية فى مصر وتنوع محاصيلها وتفاوت إنتاجها الزراعى وارتباط ذلك بالنشاط الصناعى وخاصة فى الريف ، فيجب القول عن تنوع الأرض الزراعية فى مصر طبقا لتباينها من حيث الارتفاع والانخفاض عن نهر النيل ومن حيث جودتها ورداءتها واختلاف مواقعها عن مصادر المياه ، وقد ذكر الأسعد بن مماتى (ت ٦٠٦هـ/ ١٢٠٩م) " أن أقسام الأرض الزراعية فى الريف المصرى وصل الى ثلاثة عشر قسماً " (٣٧). وقد أيد هذا التصنيف كل من القلقشندى(٣٨) ، والمقريزي (٣٩).

وتصنف الأراضي الزراعية المصرية إلى ما يلى :

أ- **الاراضى الجيدة** : وتشمل الباقى وتقع قرب النهر، الشراقى تجاور الباقى اى تبعد عن النهر، البرايب اقل جوده من الشراقى تختص بزراعة المقات لأنه اقل جهدا للتربة

ب-**الاراضى المتوسطة** : وتشمل البقماهه يزرع بها الكتان المجهد للتربة ، الاراضى الشتوية وهى بعيده عن الماء ، وقد تصبح بورا وتقل بها إنتاجية غلة الفدان ، وشق الشمس (السلايح) تنتشر فى صعيد مصر وتتشقق بعد حرسها وريها وتعرضها لحرارة الشمس وخاصة فى الصيف .

ج-**الأراضي الضعيفة** : وهى أراضى الوسخ وتنتشر بها الأعشاب مما يقلل من قيمة إنتاجها اقتصاديا ، والمستبحر ومنها السبخة لغمرها بالمياه لمدة طويلة وقت الفيضان لانخفاض منسوبها . وكما قال ابن مماتى يمكن الاستفادة من هذا النوع لاعتباره مصدرا لمياه الرى حيث يمكن تركيب السواقى عليها ورى الأراضى التى تحتاج لرى . بالإضافة إلى السبخات. ويعد هذا التصنيف مؤشرا للقيمة النسبية للاراضى الزراعية من عام لآخر، واختلاف قدرة الأرض على الانتاج وخصوبتها وقيمة ما تنتجه من محاصيل زراعية.

وتأكيدا لما سبق ذكره عن الزراعة وارتباطها بمستوى مياه النيل وقت الفيضان والمسافة بينها وبين النيل ، فقد ربط الجغرافيين العرب بين مقياس النيل الذى يحدد مستوى المياه ارتفاعا وانخفاضا وبين تقدير الخراج على الأرض الزراعية وجودة الإنتاج المرتبط بجودة الأرض وتوفر مياه الرى ، وخير برهان على ذلك قول المسعودى (ت ٣٤٥هـ /٩٥٦م) أن مصر " مستغنية عن المطر غير مرتاحة ولا محتاجة إليه " (٤٠) ، والمقريزي الذى أدرك أهمية مياه النيل ارتفاعا وانخفاضاً فقال :" لولا زيادة النيل على التدرج حتى يتكامل رى البلاد ، وكذلك هبوط الماء على التدرج عند بدء الزراعة لولا ذلك لفسد إقليم مصر "(٤١).

أدرك ابن جبير أيضا القيمة الفعلية لمنسوب مياه النيل فربط بين تقدير الخراج فى ريف مصر ومنسوب المياه على مقياس النيل والتى من اشهرها مقياس الروضة فقال :" .. والمتوسط عندهم ما استوفى سبعة عشر ذراعا وهو الأحسن عندهم (أهل الريف) من الزيادة المذكورة والذى يستحق به السلطان خراجه فى بلاد مصر ست عشرة ذراعا فصاعداً... وإن قصر عن ستة عشرة ذراعا فلا خراج فى ذلك العام (٤٢). وقد تحدث فى هذا الشأن أيضا كل من الإدريسى ، وابن بطوطة وجميعهم حددوا أن الأرض الزراعية فى مصر تروى عند ارتفاع ستة عشر ذراعاً. أما إذا ارتفع منسوب المياه الى سبعة عشر ذراعاً سيكون الخصب فى العام والصلاح التام ، واما إذا بلغ ثمانى عشرة ذراعاً يضر بالضياع ويأتى الوباء" .(٤٣)

وتمشيا مع نظام الرى يأتى الحديث عن شبكة الترع التى تخدم كل الاراضى الزراعية على جانبى النيل ، القريب منها والبعيد عن مجرى النيل ومستوى الفيضان وهذه القضية الجغرافية أدرك أهميتها الرحالة العبدرى فى القرن السابع الهجرى ، فقد أشار لطرق الرى وأسلوبه فقال:" وصورة السقى به أن أهل كل بلد مهم خلج تخرج منه فإذا جاء مدا ترعها فاضت على الزراع وسقتها كما تسقى سائر الأنهار، وقد علموا أين ينتهى سقى كل مقياس " (٤٤).

أما قرى الواحات فكانت تروى عن طريق مياه الابار والعيون وخاصة فى المناطق التى يقيم فيها الرهبان ، وقد اختلفت الفيوم عن هذه المناطق فى نظام ريه الذى كان يستمر طول العام لوفرة المياه عن طريق بحر يوسف والذى كان متصلا بالنيل فكانت الأرض الزراعية تروى بنظام الرى الدائم ونتج عن ذلك زراعة أكثر من محصول فى العام الواحد [٤٥]. بالاضافة الى أنها الاقليم الوحيد فى مصر الذى عرفت قراه الدورة الزراعية الثنائية بل وثلاثية أحياناً[٤٦].

ثالثا- أنواع القرى:

تبين من خلال المصادر أن الريف المصرى شهد وجود القرى المسورة بهدف الحماية من الأخطار المحيطة بها، وقد أشار ابن جبير لهذا فى سياق حديثه عن القرى التى مر بها وتحقق له مشاهدتها فى طريق رحلته بالصعيد الى موضع يعرف بأنصنا: "كانت تقع على يساره وهو ذاهب الى الصعيد وهى قرية مسيحية جميلة ، كان لها سور عتيق هدمه صلاح الدين " [٤٧]، ومن هذه القرى أيضا قرية منشأة السودان ونظراً لموقعها بالقرب من النيل وإمكانية تعرضها لوصول مياه الفيضان تم بناء سور من الحجارة فاصل بينهما، فيقول عنها : " وقد أقيم أمام هذه القرية بينها وبين النيل رصيف عال من الحجارة كأنه السور يضرب فيه النيل والقرية بسببه فى أمن من أتيه " [٤٨] .

وهنا يجب التوضيح أنه نظرا للطبيعة الجغرافية للأراضي المصرية بضيق الوادى جنوباً واتساعه فى الدلتا وتحرك مياه النيل باتجاه الشمال فتمتلئ أفرع الدلتا بالمياه وتغرق معظمها وقت الفيضان ، فالتفاوت المورفولوجى اثر على نظام الرى بكل منهما، فهناك أرض عالية لا يصل إليها الماء فى الصعيد اخرى تتفاوته فى الارتفاع والانخفاض تفاوتاً كبيرا فى الدلتا، ولذلك احتاج الصعيد إلى حفر الترع ، وفى الدلتا إلى بناء الجسور ، ولولا اتقان ذلك كما قال الرحالة لما أمكن الانتفاع بمياه النيل وقت الفيضات بل وإمكانية الحفاظ عليها من أجل استخدامها فى الزراعة سواء لرى ما هو موجود بالفعل من أرض زراعية أو لامكانية التوسع الافقى فى المساحة القابلة للزراعة ، بالإضافة إلى حماية المحلات العمرانية وخاصة القرى من أخطار الفيضان.

وبحصر عدد الجسور الرئيسية التى تم إقامتها على شاطئ النيل لحماية المحلات العمرانية العصر الوسيط واستمرت حتى القرن التاسع عشر وكمعبر يربط بين القرى وكمانع مائى، تبين أن أهمها جسور(الغربية، الشرقية ، قويسنا) وانقسمت هذه الجسور إلى قسمين:

أ- جسور سلطانية على جانبى النيل منها جسور الغربية والشرقية وقويسنا وهى تابعة للدولة.

ب-جسو بلدية (محلية) فرعية، وهى التى تقام فى مناطق دون أخرى، ومن أمثلة هذه السدود سد خليج أمير المؤمنين وسد سردوس، عند قرية باسوس.

أما الخلجان والتى تمثل امتدادا لمحور امتداد القرى الرئيسى وهو نهر النيل فقد حظيت باهتمام الرحالة ، وطبقا لحصرهم بلغ عددها ثمانية خلجان، ووصل عدد الترع إلى مائة وسبع عشرة فى مصر العليا والسفلى، وتركز معظمها فى الدلتا لاتساع مساحة الاراضى الزراعية. ولم يكتف الرحالة بذلك بل اهتموا بالسدود وتوضيح أهميتها مثل سد خليج أمير المؤمنين ويقع بعين شمس وكان سدا ترابيا لحماية ما خلفه من خطر الفيضان ويساهم فى ارتفاع منسوب المياه فترودى الارض الى أمامه، والسد الثانى سد سردوس على خليج سردوس الذى كان يخرج من الضفة الشرقية للنيل عند قرية باسوس بمركز قليوب حالي ، ومن ثم كان الاهتمام بتأمين القرى بأنشاء اسوار من الحجارة أحيانا لحمايتها من الفيضان ولحمايتها من خطر أى اعتداء خارجى وتأكيدا لذلك قال ابن جبير :" واجتزنا فى طريقنا على حصن كبير يعرف بالزاب وهى مظلة على قرى وعمائر متصلة وعلى قرية مسورة تعرف باسكندرونة وذلك لمطالعة مركب بها" (٤٩).

وقد ابرز ناصر خسرو مواضع القرى وفلسفة اختيارها طبقا لمشاهدته الشخصية أثناء زيارته الميدانية فقال " شيدت قرى مصر كلها على المرتفعات والتلول، وذلك حتى لا تغرق فإن الماء يغمر البلاد كلها وقت الفيضان وحينئذ يسيرون من قرية إلى أخرى بالزوارق" (٥٠). وهذه الصورة الجغرافية الحية تبرز كيف تأثرت مواضع القرى ومواقعها ببعض العوامل الجغرافية أهمها: فيضان النيل وامتداده، وشكل السهل الفيضى واتساعه

والنقاط الجافة ونهايات الأودية ونقاط التماس بين السهل الفيضى والهامش الصحراوى. كما اشتهرت بعض القرى بصناعات بعينها مثل صناعة الستور البهنسية بالهنسا بالمنيا حاليا والنسيج بالأشمونين والجلود فى دلاص بصعيد مصر والفخار والتمر فى أسوان (٣). (عاصم محمد رزق –مراكز الصناعة فى صعيد مصر –القاهرة ١٩٨٩–صفحات متعددة.

ويضيف ابن جبير إلى ذلك ما ذكره عن دمنهور:" وهو بلد مسور فى بسيط من الأرض أفيح (واسع) متصل من الاسكندرية إليه إلى مصر ، والقرى فيها يمينا وشمالا لا تحصى [٥١]، وكثرة القرى هنا مردها الى اتساع سهول الدلتا وتعدد خلجانها أو افرع النيل والترع وهو ما قال عنها أنها تقع فى إقليم واسع من الأرض.

رابعا– مكونات القرية المصرية

أ– السوق

ويعد من أهم مكونات القرية المصرية، وصورة من صور النشاط التجارى بين القرى المصرية والمدن ، كما انه يوضح العلاقة بين الإنسان والمكان ، والسوق هو المكان المحدد الذى يتقابل فيه البائع بسلعه والمشترى ، وبالتالى يتحدد نوع السلع وأسعارها، وفى هذا اليوم تنشط القرية وما يجاورها من قرى . وقد ساهم الطريق النهرى الذى ربط بين السلسة العمرانية المتاخمة للنيل سواء فى الدلتا أو الصعيد فى عملية نقل السلع إلى الأسواق ، وان كان هناك بعض المنتجات الريفية تعدت الحدود المصرية وخاصة الشرقية والجنوبة عبر موانئ البحر الأحمر وطريق درب الأربعين ونهر النيل ، وتشير بعض المصادر إلى أن تجارة الإسكندرية بقيت متصلة مع الدلتا والصعيد بواسطة الترعة النيلية ، غير أن رشيد و دمياط اجتذبتا معظم التجارة خاصة مع موقعهما عند مصبى النهر الرئيسى [٥٢].

كما ارتبط تنوع الأسواق بتنوع المنتجات واختلاف زمان ومكان إقامتها . فلم يعد سوقاً وحيداً تتميز به القرية وإنما زاد عدد الأسواق مع اتساع القرى وزيادة عدد السكان وتطور اعداد القرى والتى قدرها المقريزى بما يقرب من ألفين وخمسمائة قرية [٥٣]. ومنها أى القرى ما يصل عدد سكانها (عشرة ألاف نسمة) [٥٤].

وقد تبين من هذه الدراسة أن الريف المصرى عرف الأسواق الدورية ، التى ارتبطت بيوم معين فى الأسبوع ، كسوق الجيزة التى يقام يوم الأحد من كل أسبوع ، كما حدده المقريزى (٥٥). ويأتي إليه التجار من جميع النواحى ، وتجتمع فيه السلع المختلفة ، وقد شاهد ابن جبير هذا السوق ، وكعادته اهتم برصده وذكره بالدقة المشهور بها فقال عنه: " قرية كبيرة حفيلة البنيان تعرف بالجيزة لها كل يوم أحد سوق من الأسواق العظيمة تجتمع فيه خلق عظيم..." (٥٦).

وتعد الأسواق من المكونات الأساسية للريف المصرى وعنصرا مهما لعمارة القرية واتساعها ، بل إن الأسواق كانت من أهم المظاهر التى تميز القرى وتلفت نظر الرحالة وتشد انتباههم، وعنصر مهم من عناصر الصورة الجغرافية للقرية، وتظهر أهمية الاسواق أيضا للرحالة فى توفير المادة العلمية التى تتيح لهم اسلوب الوصف لهذه القرى، وأدرك هؤلاء العلاقة بين أهمية السوق وسعة انتشاره وبين حجم السكان والعمران أيضا وشبكة الطرق . فنظرا لأهمية السوق فإنها تنتشر بشكل متصل تبعا لطبيعة توزيع التجمعات السكنية والسكانية على حد سواء. وخير دليل على هذا الرأى ما ذكره ابن بطوطة بأن المسافر عن طريق النيل سواء شمالاً أو جنوباً لا يستدعى الأمر أن يحمل طعامه معه وذلك راجع إلى أنه " مهما أراد المسافر النزول للشاطئ نزل للوضوء والصلاة وشراء الزاد وغير ذلك " (٥٧).

ويضيف الادريسى معلومات جغرافية مهمة عن قرية دمسيس وهى قرية عامرة ولها سوق يوم السبت وهذا السوق كما يذكر لنا " يباع فيه ويشترى من الثياب والأمتعة كل طريفة والتجار يقصدوها .." (٥٨) ، وهناك الكثير من المحاصيل التى تصل الى القاهرة والفسطاط ومصدرها الريف مثل " العنب والتين .. ولكثرة ما يعصرون العنب فى أرياف النيل لا يصل منه إلا القليل " (٥٩). وكذلك قرى أسوان والتى كان يقام بها الكثير من الأسواق المحلية والتى كانت تعقد كل أسبوع وكانت تقسم هذه الاسواق طبقا لطبيعة السلعة مما يسهل على المشترى تمييز كل سلعة عن الأخرى وسهولة البيع والشراء، وتأكيدا لذلك حدد الادريسى الأسواق ذات الطبيعة الدورية والتى كانت توجد فى كثير من القرى المصرية فقال :" قرية قدقدوس وهى قرية كبيرة ذات بساتين وزروع ولها سوق نافقة وهى

يوم الأربعاء ، وقرية دمسيس وهى قرية عامرة ولها سوق وهو يوم السبت " (٦٠). وذلك لخدمة المنطقة المحيطة بها حيث وتعج بالفلاحين والجلابة والتجار. وليست السوق فقط هى أساس التجارة فى الريف المصرى ولكن هناك الدكاكين والتى كانت تجاور الاسواق فى كل قرى مصر ومكملة لها مثل دكاكين العطارة فى قرية اطفيح ، وهى من قرى مركز الصف بالجيزة" (٦١).

وتأتى أهمية الأسواق الريفية من كونها خادمة لسكان القرى والقرى المجاورة وجاذبة للجلابة الذين يقومون بجلب السلع المهمة والضرورية كالقمح للقاهرة ، وهذا ما ذكره ابن جبير عن جلب قمح منفلوط الذى تشتهر به لجودته ورزانة جبته فالتجارة يركبون النيل بمراكبهم لاستجلابه(٦٢).

كما اعتبرت أسواق المدن منفذ رئيسى لتسويق منتجات الريف، كما قامت القرى بأمداد اسواق المدن بسائر المنتجات والغلات والخضراوات والحيوانات ومن أشهرها القمح والشعير والفول لأهميته فى تأمين الغذاء لسكان العاصمة والمدن الرئيسية وتأثر المقرار السياسى به، وقد عبر عن ذلك ناصر خسرو الذى بين أنه" يؤتى بالفاكهة والاغذية من قرى مصر وتجلب كل الحاجيات لمدينة مصر (الفسطاط) من جميع البلاد ويباع بعضها فى الاسواق" (٦٣).

ومما يدل أيضا على العلاقة التجارية بين القرى والمدن :" ان بنيلها من المراكب ستة وثلاثين الف للسلطان والرعية تمر صاعدة الى الصعيد ومتمددة الى دمياط بأنواع الخيرات " (٦٤). إضافة الى أن الكثير من المدن المصرية كانت محل اهتمام أهل الريف وملاذهم وخاصة فى وقت الأزمات والمجاعات، وقد ذكر ذلك بالتفصيل الرحالة البغدادى وخاصة عندما تعرضت البلاد للجفاف وقل الانتاج الزراعى فاضطر أهل الريف دخول القاهرة ، والمدن الكبيرى وكان ذلك فى عام ٥٩٥هـ.

كما تبين من المصادر أن الكثير من الصناعات المهمة فى المدن مصدر موادها الخام ما يرد من الريف مثل محصول قصب السكر الذى دخلت زراعته فى القرن السابع الميلادى على أيدى العرب إضافة الى منتجات القطن والكتان لصناعة الملابس والزيوت (٦٥).

وانتشار زراعة القصب فى أبنود بمحافظة قنا حاليا حيث تنتشر معامل السكر، كما يـــرزع فى قرية القيس ومنلوى(ملوى) بالمنيا حاليا[٦٦]. وأدى ذلك الى انتشار معامـــل لتصـــنيع السكر فى المدن وكان يجلب القصب من الريف مثل مدينة شنشا (دشنا) التى يقول عنهـــا الادريسى:" وهى مدينة حسنة .. وبها معاصر لقصب السكر "[٦٧]. ومدينة منلوى (ملوى) " وهى صغيرة مبنية على مسافة ميلين من النيل .. وبهذه المدينة احدى عشـــرة معصـــرة للسكر "[٦٨].

ب-الجامع:

ويعد من أهم الخدمات الدينية التى توجد فى القرى المصرية والتى انتشـــرت بعـــد الفتح الاسلامى لمصر، وكما يعد من أهم مكونات القرى، ونظرا لأهميته فقد دأب الرحالة عند دراستهم للريف ومعالمه التى تميز كل منها، أن يتحدثوا عن المساجد كأهم معلم دينى وتاريخى فى الريف والمدن على حد سواء وهذا ما جعل الرحالة يقولون أنهـــم " شـــاهدوا الصلاة بموضع يعرف بطنده وهى من القرى الفسيحة الآهلة بالسكان فأبصرنا بها مجمعـــا حفيلاً وخطب الخطيب بخطبة بليغة جامعة ... ومررنا على موضع يعرف بقليوب، فيـــه الاسواق الجميلة ومسجد جامع كبير حفيل" [٦٩]. وغالباً ما كان المسجد يشيد أو يخطط ويحدد موقعه عند إنشاء اى محلة عمرانية ريفية ، حتى بات معلماً أساسيا لها ، ومن أهـــم القرى التى وردت فى كتابات الرحالة مقترن ذكرها بالمسجد قرية سيله من أعمال الفيوم بها مسجد يعقوب [٧٠]، وقرية اللاهون به مسجد يوسف الصديق والسد الذى بناه لرد الماء إلى الفيوم[٧١]. مما يعنى أن المسجد كان يرمز للهوية الدينية للمحلة العمرانية وهذا طـــابع عربى اسلامى .

أما بشأن الزوايا والمشاهد أو الأضرحة والتى انتشرت فى القرى المصـــرية، وقـــد ارتبط الكثير منها كما اعتقد أهل الريف بأصحاب الكرامات ، ونتيجة ذلك اختص بعض الرحالة المسلمين هذه المزارات الدينية بالدراسة ومن أهم هؤلاء الرحالة (الهـــروى أبـــو الحسن) (ت ٦١١هـ // ١٢١٥م) الذى وضع كتاب اسماه الإشارات إلى معرفة الزيارات فقام بزيارة المعالم الدينية ودرسها بدقة وقد كان يدرس المساجد محددا مواضعها وربطها

بما يوجد بها من أضرحة مثل حديثه عن قرى بلبيس فهناك قرية غيفا وبها مشهد عظم شأنه ، وبياض قريتان سميتا بأسماء بنات يعقوب ، وبهما قبورهما ومنية العطا قبالتها من الشرق " .

كما ربط الهروى بين الأماكن المقدسة وعادات وتقاليد أهل الريف يمثل هذا ما جاء عن قرية سميت بكفر نجد فقال يوجد " بئر يقصده من دخل فى حلقه علقة ويصعب إخراجها فانه إذا شرب من ماء البئر شربة وطاف بالبئر مرة ، فإذا أكمل سبع مرات خرجت بغير أذا " (٦). ص الأمر الملفت للنظر اهتمام الرحالة أثناء زيارتهم للريف بدراسة الأماكن الدينية المسيحية كمعلم تاريخى وديني منه يستقى الرحالة قيمة وعمر المحلة العمرانية . فنجد أن الكنائس مثلت جانب مهم من منهج دراسة الرحالة العرب للريف المصرى ، فنجد ابن جبير اهتم بذكر المقابر والآثار المهمة للأنبياء والأولياء، والمعابد والكنائس والأديرة . بل تخطى الأمر ذلك الى تصنيف القرى المصرية على أساس انتماء غالبية سكانها لدين معين وخاصة المسيحية، وهذا ظهر فى كتابات الأدريسى عن جغرافية الريف المصرى فقال :" أن أكثر رساتيق [٧٢] مصر وقراها فى الجوف والريف هو ما كان من النيل جنوبا وأكثر هذه القرى نصارى [٧٣].

الجدير بالذكر أيضا أن بعض الجغرافيين العرب اهتموا عند حديثهم عن العمران الريفى، بتلك القرى التى اندثرت كشاهد على أصالة الريف فى مصر، وهنا نذكر ما جاء به ابن حوقل عن قرية(القس) وقد خربت ومكانها الجبلين ، ونستروه (كوم مسطورة) كانت حسنة، وكان بها قوم مياسير وقرية عين شمس (تل الحصن) وقرية منف (منفيس) كانا مسكنين لفرعون [٧٤].

الملاحظة المهمة ايضا تصنيف بعض القرى على أنها ضاحية لقربها من العاصمة الكبرى لمصر وعلى أنها الظهير الزراعى الذى يوفر للسكان احتياجاتهم اليومية من الخضراوات والفواكه فى ظل توفر التربة والمياه من الخلجان، وامكانية الزراعة فى بداية الفيضان وخير دليل على هذه الضواحى (شبرا الخيمة) حاليا وشبرا تعنى المزرعة وجميعها كانت فى مصر السفلى ، وقد ذكرها الادريسى، وياقوت الحموى ، وابن مماتى باعتبارها

من الضواحى ، وقد جعلها ابن دقماق ضمن قرى وبلدان الهامش الريفى الحضرى، وقال عنها ياقوت الحموى شبرا دمنهور من ضواحى القاهرة ينسب إليها النبيذ الشبراوى [٧٥].

خامسا- تركيب المسكن الريفى :

يمكن القول ان الرحالة فى العصر الاسلامى الوسيط قد وصفوا مصر بشطريها الشمالى والجنوبى(العلوى والسفلى) واحتوت كتاباتهم الجغرافية على العديد من التفصيلات عن مكونات الريف إلا ان السكن فى الريف لم يلق الاهتمام الكافى منهم مثل ما نالته الكثير من المنشأت أو المكونات الأخرى فى القرى. ويمكن إرجاع هذا الأمر، الى اهتمام الرحالة والجغرافيين بشبكة الطرق التى تقع عليها المحلات العمرانية ، وبساطة المنزل القروى مقارنة مع الهياكل والاثار المصرية التى كانت تنتشر فى القرى والمدن ، والتى حظيت باهتمام هؤلاء لكشف اسرارها ومعرفة القصص التى تحكى عنها.

أما بشأن المسكن وخاصة فى الصعيد، فكانت مواضعها على مرتفع من الأرض تجنبًا لمخاطر الفيضان، وعادة ما تتكون من طابق واحد، وكان يستخدمون فى بنائه الطوب اللبن، مستغلين المورد الطبيعى المنتشر فى البيئة الريفية وهو طمى النيل فى تصنيعه مع التبن وهو نتاج المحاصيل الزراعية وخاصة القمح ، مما يعنى أن سكان الريف استخدموا ما توفر لديهم من مواد خام فى بناء المنازل بما يتلائم مع قدراتهم الاقتصادية وظروف بيئتهم الريفية وعاداتهم والاجتماعية مثل الطين والخشب وجريد النخل وجذوعها لصناعة الاسقف والابواب وصوامع الغلال [٧٦] لتخزين الحبوب لوقت الحاجة اليها وهى ظاهرة متوارثة من العصور القديمة.

وقد أوجز علماء الحملة الفرنسية فى وصفهم للمنازل الريفية ومن أهم ما ذكر : " ومررنا على مطوبس وديروط وهما قريتان كبيرتان وقد بنيت كل هذه القرى من الطين بطريقة تبدو معها وكأنها أكوام من الطين المجفف، ويبدو أن بيوت هذه القرى قد بنيت من الطوب ومنازل هذه القرى واطئة وقلما ترتفع فوق الارض لأكثر من اثنى عشر قدماً.. وليست اشجار النخيل وحدها التى تشكل زينة لشواطئ النهر فثمة أشجار الجميز، وقد

لاحظوا أن أغصان هذه الشجرة تتحرك كلها فى نفس الاتجاه وهو اتجاه الرياح الشمالية الغربية التى تسيطر على البلاد فى معظم الأوقات [٧٧].

ويضاف الى ذلك الاسقف والجدران بنيت لتبقى سنوات وخصصت بداخل البيوت غرف لتخزين الفائض الهامشى وغير ذلك مما يعكس ضرورات الاستقرار طويل المدى، ويظهر سكن العربان بجوارها كمجموعة من العشش المؤقتة ، كل عشه من حجرة واحدة قد الحق به حوش الغنم ، شبه خالية من الأثاث القائم إن هى إلا حصائر فوقها جلود الخراف الصوفية وقد تطلب الأمر وقتا حتى اتخذ سكن العربان تركيب القرى، واقتربت من نمط توزيعها.

سادسا- التدرج الحجمى للقرى:

رغم أن هذه الموضوع من أهم الملاحظات الجغرافية التى يمكن تلفت نظر الرحالة عند زيارتهم للقرى المصرية إلا أنهم أشاروا إليها باستحياء فقد جاء موضوع التدرج الحجمى للقرى باستعمال مسميات شملت ادراجا جميعاً، فهناك قرية كبيرة وأخرى حسنة وقرية صغيرة وقرية جامعة وقرية من أعيان القرى وقرية من الضواحى، وممكن أن نرجع هذا التنوع الحجمى وتنوع المسميات الى عدة ضوابط من أهمها حجم السكان وتنوع الموارد أو حجم الإنتاج وتنوعه أو دور العبادة والمسافة بين هذه القرى والمدن الكبرى وخاصة العاصمة الكبرى كالقاهرة ويؤيد ذلك ما ذكر عن شبرا.

وتأكيد لذلك ما لاحظه وشاهده ابن جبير عند دراسته لبعض القرى فقال: "برمة وهى قرية كبيرة فيها السوق وجميع المرافق فشاهدنا الصلاة بموضع يعرف بطندة وهى من القرى القديمة الآهلة بالسكان ... قرية كبيرة الشأن حفيلة البنيان تعرف بالجيزة ومنها موضع عرف بانصنا على اليسار منها وهى قرية فسيحة .. منشأة السودان وهى من القرى المعمورة .." [٧٨]. وشبرا قرية من ضواحى القاهرة "[٧٩] . أما الادريسى فقال عن قرية منية إسنا " ... فى الشرق من الخليج وهى قرية حسنة ولها سوق فى يوم معلوم، وقرية طنت (طنطا) وهى قرية حسنة كثيرة المزارع والغلات "[٨٠]. وهناك القرى الكبيرة التى حددها ابن بطوطه فى قوله :" قرية تروجه قرية كبيرة [٨١]" وهناك القرى الحسنة التى ذكرها ابن

جبير عن البلينة " قرية حسنة كثيرة النخل " (٨٢). وأحيانا اقترن تحديد حجم القرى بالمسافة بينها وبين الأقرب إليها من القرى والمدن المهمة ، وقد اتضح ذلك فيما ذكره الأدريسى الذى اهتم بتحديد أحجام القرى فى أكثر من موضع فقال :" قرية ومنها إلى شلقان خمسة أميال وهى قرية كبيرة عامرة ، منية الحوفى، وهى قرية كبيرة ، وقرية قدقوس وهى قرية كبيرة جداً، وقرية دمسيس وهى قرية عامرة آهلة بها سوق يوم السبت ، قرية السنطة وهى قرية جليلة "(٨٣).

وقد حاول هؤلاء الجغرافيين العرب أن الربط بين حجم القرية وحجم سكانها وبين المدينة ، فأوضحوا أن هناك بعض القرى الكبيرة والتى تشبه المدن لاتساعها وكثرة سكانها وأسواقها ، فقد يزيد حجم القرية فتصف كالمدينة، فقال الادريسى يصف ذلك عن أحدى القرى هى قرية شابور" وهى قرية وضياع كالمدينة" (٨٤). ولهذا فان المقاييس التى استعملها الرحالة فى تصنيف المدن حسب الحجم هى نفسها التى استخدمت فى تصنيف القرى حجمياً. ولكن نجد أن القرى إذا زاد حجمها واتصفت بصفة الحضرية من خلال بعض الاعمال يمكن ان تشبه بالمدن أو تحول الى مدن، وعموما فإن أهم سمات القرية كما ورد عن الرحالة والجغرافيين العرب وجود جامع، مع كثرة السكان وتوفر المياه والانتاج الزراعى، وانتشار النشاط الزراعى والمسكن الريفى البسيط. ى والتراتب الحجمى والمسالك التى تربطها واحوالها وأشكالها، والمقارنة فيما بينها، ومكوناتها وقيمتها التاريخية والدينية واظهروا . كما لاقى الريف اهتماما بدرجاته ومواقعه وشروط انشائه وخططه ومسمياته كغيره من المدن لاقى اهتمام كبيراً عند هؤلاء دفعهم الى ذلك كون الاستقرار ضرورة دنيوية ودينية تستدعى المعرفة بأحوال القرى وسماتها مما لا يتم الواجب الا بها، كما يعد ذلك ضرورة دينية وخاصة عند تعيين القضاة حتى يعين له ما يوليه فيه الحكم ليعلم محل ولايته فيكم دون غيره، فوجب تحديد القرى الريفية المفترقة والمدن كذلك.

الخاتمة:

نستخلص من هذه الدراسة ان العمران يمثل أحد أهم الاتجاهات الجغرافية التى تحتاج فهم ماضيها حتى نستطيع تفسير الكثير من جوانبها الحالية، أى أن عمران الحاضر وخاصة العمران الريفى يكتسب عمقا ومعنى بالرجوع الى الماضى، ويلاحظ من خلال الدراسة أن المقاييس التى استخدمها الرحالة العرب لوصف جغرافية الريف كانت أكثر من المدن، من خلال ذكر البساتين والنخيل والمياه والفواكه وامكانية تحول القرى الى مدن أو قرى كبيرة لتحضرها.

يمكن القول أيضا بان طبقات مراكز الاستقرار البشرى فى المعمور المصرى بالوادى والدلتا كانت طبقات متداخلة ليست بينها حدود فاصلة واضحة ، فالقرى التى تزيد رقعة زمامها الزراعى يزداد حجم سكانها وقد تنشأ بها بعض الحرف الصناعية القائمة على المنتجات الزراعية ، وقد بين الرحالة أيضا أن لموقعها المتوسط أهمية تجارية بالنسبة لما حولها، فإذا كانت واقعة على مجرى مائى كنهر النيل أو أحد خلجانها سهل لها ذلك سبل الاتصالات المكانية وزاد من فرص تحولها عن طبقة القرى الكبيرة الى أن تصبح قرية متحضرة.

شهدت القرى فى مصر اهتماما ملحوظا من قبل الحكام العرب نظرا لأهميتها لتامين موارد الغذاء لسكان الإمبراطورية الإسلامية ولهذا اهتم الحكام بتطهير الترع والمصارف وحفرها وامتداده لأراضى زراعية واسعة لزيادة الإنتاج وتامين الطرق على اختلافها مما شجع على التوسع الزراعى وتوفير فرص العمل وهذا ساهم فى نمو العمران الريفى وانتشاره .

ارتبطت أهمية الكثير من القرى بنوع معين من المحاصيل الزراعية والنباتات والأشجار مثل الأفيون فى قرى أسيوط والتمر فى الجنوب والأرز فى الفيوم والدلتا كذلك وجود بعض الحرف مثل صناعة النسيج والفخار فى أسوان والسكر فى قرى ملوى اى التخصص الزراعى والصناعى لبعض القرى حسب توفر المواد الخام الزراعية ، ويرجع هذا التنوع لاختلاف درجة الحرارة والتربة ومياه الرى .

ترجع دقة المعلومات الجغرافية التى وردت عن الريف المصرى فى الكتابات العربية وخاصة كتب الرحلات نتيجة المشاهدة الشخصية المباشرة للرحالة وجمع معلوماته من الميدان وتوفر الأمن عبر أراضى مصر من الجنوب إلى الشمال وحب الكثير من هؤلاء لمصر وارتباطهم بها والاستقرار على أراضيها والزواج من أهلها كما فعل ابن جبير وبقائهم لمدة طويلة فيها مما يوفر الوقت لدراستها وجمع المعلومات من مصادرها الأصلية . بل اشتغال بعضهم بالتجارة التى كانت رائجة فى مصر خلال العصر الوسيط . يضاف إلى ذلك النزعة الدينية عند بعض الرحالة مما جعلهم يهتموا بدراسة المعالم الدينية كالمساجد والأضرحة والشواهد وحتى الكنائس المهمة .

المصادر

١٨- شهاب الدين النويرى ، نهاية الإرب فى فنون الأدب ، ط١ ، تقديم مرزوق إبراهيم ، الهيئة العامة للكتاب، ٢٠٠١م.

١٩- ابن زولاق ، فضائل مصر واخبارها وخواصها، تحقيق على محمد عمر، الهيئة العامة للكتاب ، ١٩٩٩م.

٢٠- ابن ظهيرة، الفضائل الباهرة فى محاسن مصر والقاهرة، تحقيق ، مصطفى السقا ، الهيئة العامة للكتاب، ٢٠١٦م.

٢١- ابن حوقل : (ابى القاسم محمد) صورة الارض ، دار الحياة ، لبنان ١٩٧٩.

٢٢- ابن عبد الحكم (ابو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله) فتوح مصر وأخبارها، القاهرة، ١٩١٤.

٢٣- الاردیسى – ابى عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله الشريف، نزهة المشتاق فى احتراف الآفاق، مكتبة الثقافية الدينية ، القاهرة، ١٩٩٩.

٢٤- ابن بطوطه ، رحلة ابن بطوطه، دار بيروت للطباعة ، بيروت، ١٩٦٠.

٢٥- البغدادى (صفى الدين عبد الحق) ، مراصد الاطلاع على اسماء والأمكنة والبقاع ، تحقيق على البيجاوى، ط١ ، القاهرة، ١٩٥٥.

٢٦- ابن جبير (ابو الحسن بن محمد احمد الكنانى) ، رحلة ابن جبير ، تحقيق حسين نصار، مكتبة مصر ، القاهرة ، ١٩٩٢.

٢٧- ابى بكر الزهرى، كتاب الجغرافيا ، تحقيق محمد حجاج صادق ، الثقافة الدينية، القاهرة، ٢٠٠٠م.

٢٨- زكريا القزوينى، آثار البلاد وأخبار العباد ، القاهرة، ٢٠٠٣م.

٢٩- القلقشندى (شهاب الدين ابو العباس) ، صبح الاعشى فى صناعة الانشا، القاهرة، ١٩١٣م.

٣٠- الأسعد ابن مماتى ، قوانين الدواوين ، تحقيق عزيز سوريال ، القاهرة، ١٩٤٣.

٣١- ناصر خسرو علوى ، سفر نامة ، ترجمة يحيى الخشاب ، الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة، ١٩٩٣م.

٣٢- الهروى أبو الحسن السائح ، الاشارات الى معرفة الزيارات ، تحقيق على عمر ، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة ، ٢٠٠٢م.
٣٣- ياقوت الحموى ، معجم البلدان ، بيروت، ١٩٥٧.

المراجع العربية

١- عمر الفاروق سيد رجب ، فصول من جغرافية مصر فى العصور الوسطى – المنار للطباعة ، القاهرة ، ط٥ ،١٩٩٣م.
٢- عمر عبد الهادى غنيم ، العمران الريفى والأرض الزراعية ، مركز دسوق، (كفر الشيخ) مجلة دراسات جغرافية قسم الجغرافيا كلية الآداب جامعة المنيا ،المجلد الخامس ، العدد ٦ ، ١٩٩١.
٣- عبد العال الشامى ، مدن مصر وقراها، مجلة الآداب والعلوم الانساينة ، كلية الآداب ، جامعة المنيا، المجلد ٩ ، العدد ١ ، ١٩٩١.
٤- سلسلة وصف مصر، ترجمة زهير الشايب ، ج٤ ، مكتبة الأسرة ، ٢٠٠٢م.
٥- ظريف مراد، التراث الجغرافى العربى لابن حقول ومنهجه الجغرافى ، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، ٢٠٠٤م.
٦- محمد علم الدين الشقنقيرى ، صورة مصر من خلال رحلة ابن جبير وابن بطوطة ، دار فرحة للنشر، القاهرة ، ٢٠٠٥م.
٧- أمينة احمد إمام ، رؤية الرحالة المسلمين للأحوال المالية والاقتصادية لمصر فى العصر الفاطمى، الهيئة العامة للكتاب ، ١٩٩٤ .
٨- قاسم عبده قاسم ، عصر سلاطين المماليك ، دار المعارف ، الإسكندرية، ١٩٨٣م.
٩- عبد الرحمن الجبرتى ، تاريخ الجبرتى ، الهيئة العامة للكتاب ، مكتبة الأسرة ، ١٩٩٦م.
١٠- محمد محمود محمدين ، التراث الجغرافى الاسلامى ، دار العلوم ، الرياض ١٩٨٤م.
١١- إبراهيم دسوقى محمود ، الطرق التجارية القديمة فى مصر وآثارها الحضارية ، المنيا ، ٢٠٠٠م

---

(١) عبد العال الشامى، مدن مصر وقراها فى القرن الثامن ، مجلة كلية الآداب، جامعة المنيا ، المجلد التاسع ، العدد١، ١٩٩١ ، ص ٢٣.

(٢) القلقشندى، صبح الأعشى فى صناعة الإنشاء ، ج٣ ، القاهرة ، ١٩١٣، ص ٣١٣.

(٣) عمرو عبد العزيز ، العمران المصرى بين الرحلة والأسطورة ، القاهرة ، ٢٠١١ ، ص ٤٧٢.

(٤) القرية بمعنى " قريت" اى جمعت الشئ والأصل " قر" فى مكان بمعنى تسكن ، واستقر بمعنى اقام والقرية : كل مكان اتصلت به الأبنية جمع بناء واتخذ مجهولا أى اتخذه أهله قراراً أى مكان يستقرون فيه، وجمعه قرى. (عمرو عبد العزيز، مرجع سابق ، ص ٤٧٢)

(٥) ابن ظهيره ، الفضائل الباهرة فى محسن مصر والقاهرة ، تحقيق مصطفى السقا، الهيئة العامة للكتـــاب، ٢٠١٦، ص ١٣.

(٦) نفس المصدر ، ص ١٧٢.

(٧) طبقا لأراء بطليموس هى بالترتيب (البيلوزى ، التانيس، المنديزى، الفـــاتميتى، ديولكـــوس ، بيســـتيمى، الســـبنيتى، البولبيتى، الهرقلى) من الشرق إلى الغرب ويذكر ابن عبد الحكم مسميات أخرى بعد اندثار معظمها منهـــا (ســـردوس، دمياط ، سخا ، الإسكندرية) ،انظر: عمر الفاروق سيد رجب ، مرجع سابق ، ص ١١٥، ١١٦. وانظر: أمينه إمام ، رؤية الرحالة المسلمين للأحوال المالية والاقتصادية لمصر فى العصر الفاطمى ، القاهرة ، ١٩٩٤م

(٨) الاصطخرى : المسالك والممالك ، ط ليدن ١٥٧٠، ص ٤٠.

(٩) الرستاق : أرض السواد والقرى أو بيوت مجتمعة انظر: عمرو عبد العزيز، مرجع سابق ، ص ٤٩٩.

(١٠) الإدريسى : نزهة المشتاق ، نشر المعهد الايطالي ، (بدون تاريخ) ، ص ٣٩٣

(١١) ابن ظهيره ، مصدر سابق ، ص ١١٢

(١٢) نفس المصدر، ص ١١٣

(١٣) جعفر على محمد عبد الله ، مدن مصر الصناعية فى العصر الاسلامى ، الهيئة العامة للكتـــاب ، ٢٠٠٠، ص ٢٦٥، وأمينه إمام ، مرجع سابق ، ص ص ٣٠٥ : ٣٠٨

(١٤) ابن جبير ، رحلة ابن جبير ، مكبتة دار الهلال ، بيروت، ١٩٨١ ، ص ٣٦- ٣٧.

(١٥) ابن حوقل ، مصدر سابق ، ص ١٤٩

(١٦) نفس المصدر ، ص ١٤٣

(١٧) نفس المصدر، ص ١٣٨.

(١٨) ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة " تحفة النظار فى غرائب الامصار" تحقيق طلال حرب ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ١٨٧ ، ص ٢٥، ٢٦.

(١٩) الادريسى، مصدر سابق، ص ٣٢٥.

(٢٠) يمكن الرجوع : عمر الفاروق سيد رجب ، مرجع سابق، ص ص ٢٤٥:٢٤١.

(٢١) الادريسى، مصدر سابق ، ص٣٤٢.

(٢٢) ابن ظهيرة ، مصدر سابق ، ص ١١٢.

(٢٣) ابن بطوطه، مصدر سابق ، ص ٣٠.

(٢٤) ناصر خسرو ، مصدر سابق ، ص ١٤٦.

(٢٥) نفس المصدر ، ص ١٤٨.

(٢٦) عبد العال الشامى، مرجع سابق ، ص ٢٣.

(٢٧) ناصر خسرو ، مصدر سابق ، ص ١٣١.

(٢٨)عبد العال الشامى، مرجع سابق ، ص ٢٩- ٣٠.

([٢٩]) الاردیسی، مصدر سابق ، ص ٣٢٦.

([٣٠]) الادریسی ، مصدر سابق ،ص ٣٢٧.

([٣١]) نفس المصدر ، ص ٣٣٩.

([٣٢]) نفس المصدر ، ص ٣٢٨، ص ٣٣٥.

([٣٣]) نفس المصدر ، ص ٣٣٦.

([٣٤]) ابن جبیر ، مصدر سابق ، ص ٦٧.

([٣٥]) ابن سعید المغربی، کتاب الجغرافیا، تحقیق إسماعیل العربی، المکتبة التجاریة، بغداد ١٩٧٠، ص ص ٣١: ٥٠.

([٣٦]) القزیونی ، مصدر سابق ، ص ٢٤١.

([٣٧]) الأسعد بن مماتی، قوانین الدواوین، مکتبة مدبولی ، القاهرة، ١٩٩١، ص ٣٦٧.

([٣٨]) القلقشندی ، صبح الأعشی فی صناعة الانشا، عالم الکتب، القاهرة، ١٩٦١ ، ص ٤٥١.

([٣٩]) المقریزی ، البیان والاعراب بأرض مصر من الإعراب ، القاهرة، ١٩٦٠، ص ٢٤، ٢٥.

([٤٠]) احمد الحته ، تاریخ الزراعة المصریة ، الهیئة العامة للکتاب ، ٢٠١٢، ص ٢٢٥: ٢٢٧

([٤١]) المقریزی ، مصدر سابق ، ص ٢٧.

([٤٢]) ابن جبیر ، مصدر سابق ، ص ٥٤.

([٤٣]) ابن بطوطه، مصدر سابق ، ص ٣٥.

([٤٤])[٤٤] احمد الحته ، مرجع سابق ، ص ٣٨.

([٤٥]) العبدری ، رحلة العبدری ، تحقیق علی کردی ، دمشق ، ١٩٩٩، ص ٣١٤-٣١٥

([٤٦]) ابن حوقل ، مصدر سابق ، ص ١٤٣.

([٤٧]) ابن جبیر ، مصدر سابق ، ص ٥٧، ٥٨.

([٤٨]) نفس المصدر ، ص ٦١

([٤٩]) ابن جبیر ، مصدر سابق ،ص ٢٨٦.

([٥٠]) ناصر خسرو ، سفرنامة، الخشاب ، معهد اللغات الشرقیة ، جامعة القاهرة، ١٩٨٢، ص ٩٦.

([٥١]) ابن جبیر ، مصدر سابق ،ص ٣٥، ٣٦.

([٥٢]) عبد العال الشامی ، مصدر سابق، ص ٢٢٢.

([٥٣]) المقریزی ، مصدر سابق ،ص ٧٣.

([٥٤]) عبد العال الشامی، مرجع سابق ،ص ١٤٠

([٥٥]) المقریزی: مصدر سابق، ص ٢٠٥.

([٥٦]) ابن جبیر ، مصدر سابق ، ص ٥٢.

([٥٧]) ابن بطوطه، مصدر سابق ، ص ٢٥.

([٥٨]) الادریسی ، مصدر سابق ،ص ٣٤٤.

([٥٩])ابن سعيد الاندلسى، النجوم الزاهرة فى حضرة القاهرة، تحقيق حسين نصار، دار الكتـــب ، القـــاهرة، ١٩٧٠، ص ٣١.

([٦٠]) الادريسى ، مصدر سابق ،ص ٣٤٥.

([٦١]) انظر النابلسى ، تاريخ الفيوم وبلاده ، بيروت ، ١٩٧٤، ص ١٠٥.

([٦٢]) ابن جبير ، مصدر سابق ، ص ٦١، ٦٢.

([٦٣]) ناصر خسرو، مصدر سابق ،ص ٩٥، ٩٦.

([٦٤]) ابن بطوطه، مصدر سابق ، ص ٣٢، ٣٣

([٦٥]) أمينة احمد امام، مرجع سابق ،ص ١٦٧.

([٦٦]) ابن دقماق ، الانتصار لواسطة عقد الأمصار، بيروت ، د.ت,.، ص ١٢.

([٦٧]) الأدريسى ، مرجع سابق ،ص ٣٣٥.

([٦٨]) ابن بطوطه، مصدر سابق ،ص ٣٩.

([٦٩]) ابن جبير ، مصدر سابق ،ص ٣٦، ٣٧.

انظر عبد العال الشامى ، ص ص ١٣٨: ١٤١.

([٧٠]) ياقوت الحموى ، معجم البلدان، ج ٣ ، دار إحياء التراث ، (بيروت د.ت.) ، ص ٣٠٠.

([٧١]) نفس المصدر ، ص ١٠٦. وللمزيد : إبراهيم دسوقى محمود ، مرجع سابق ،ص ٨٩

([٧٢]) الرستاق : أرض السواد والقرى

([٧٣]) الادريسى ، مصدر سابق ،ص ٣٤٣، ٣٤٤.

([٧٤]) عبد العال الشامى، مرجع سابق ، ص ١٨١

([٧٥]) ظريف مراد، التراث الجغرافى العربى(ابن حوقل ومنهجه الجغرافى) ، مكتبة الانجلو المصرية ، القـــاهرة، ٢٠٠٤ ، ص ٣٨٥.

([٧٦]) يمكن الرجوع الى رحلة البغدادى الافادة والاعتبار ، مصدر سابق ، ، و ابن جبير ، مصدر سابق .

([٧٧]) موسوعة وصف مصر، ترجمة زهير الشايب ، مكتبة الأسرة ، القاهرة، ٢٠٠٢م، ص ٢٤٩، ٢٥٠.

([٧٨]) ابن جبير ، مصدر سابق ، ص ٤٦: ٥٥.

([٧٩]) عبد العال الشامى ، مرجع سابق ، ص ١٨١.

([٨٠]) الاردىسى ، مصدر سابق ،ص ٣٣٤.

([٨١]) ابن بطوطه ، مصدر سابق ، ص ١٩

([٨٢]) ابن جبير ، مصدر سابق ، ص ٣٣٦.

([٨٣]) الادريسى ، مصدر سابق، ص ٣٣١، ٣٣٩.

([٨٤]) الادريسى ، مرجع سابق ،ص ٣٤٢.